

العادات والتقاليد الشعبية بقرى حوض الصومام- بجاية

Popular customs and traditions in the villages of valley Soummam – Bejaia

بوزيد فؤاد¹، جامعة 8 ماي 1945 – قالمة، الجزائر

BOUZID Fouad, University of 08 May 1945 – Guelma, Algeria

fouadbouzid703@gmail.com

تاريخ النشر: 2018/12/30

تاريخ القبول: 2018/12/01

تاريخ الإرسال: 2018/11/14

ملخص:

تمثل العادات والتقاليد الشعبية مكوناً أساسياً من مكونات الحياة الثقافية غير المادية للمجتمع الزاوي على العموم، والمجتمع الريفي البجائي بصفة خاصة (منطقة حوض الصومام) عبر مختلف المراحل التاريخية التي مرت بها المنطقة؛ بحيث نجد تداولها واستمرارها عبر الأجيال إلى أن وصلت إلينا في مظهرها الحالي. إنّ العادات والتقاليد الشعبية بالريف البجائي (منطقة حوض الصومام) تعبّر في حقيقة الأمر عن قيم إنسانية، تاريخية، اجتماعية، ثقافية، وحتى نفسية، استمدت جوهرها من عمق الحياة اليومية للإنسان المحلي، وتركت من وراءها جل الموروث الثقافي المتواتر بين الأجيال، تظهر من خلاله تلك اللحمة الاجتماعية للمجتمعات المحلية بما يضفي صورة الوحدة في المظهر والجوهر وبما يعبر في بعض الأحيان كذلك على روح التكافل الاجتماعي الموازي بين الغني والفقير في مجتمع القرية الواحدة بهذه المنطقة. الكلمات المفتاحية: حوض الصومام، الريف البجائي، القرية، العادات، التقاليد، التوزيع، التوزيع.

Abstract

Popular customs and traditions are an essential component of the non-material cultural life of Zawawi society in general and of the rural society in particular through the various historical stages that have passed through the region. so that we find their circulation and continuity through the generations until it reached us in the present appearance.

The customs and popular traditions of the rural area (the area of the Soummam basin) in fact reflect the values of humanity, historical, social, cultural, even psychological, derived from the depth of the daily life of the local person, and left behind the bulk of the cultural heritage inherited through successive generations, which show the social cohesion of local communities, which gives the image of unity in appearance and substance, and sometimes also reflects the spirit of social solidarity between rich and poor in the same village community in this region.

Keywords : Soummam basin, the countryside(rural areas) of Bejaia,village, customs, traditions, wziaâ,twiza.

¹ المؤلف الرئيسي: بوزيد فؤاد، قسم التاريخ والآثار، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة 08 ماي 1945 - قالمة، الجزائر.

مقدمة

يتخذ الإرث الثقافي لأي مجتمع من المجتمعات مظهرًا بارزًا بمختلف مناهله ومشاربه، بين ما هو مادي، وما هو معنوي؛ يسعى إلى إظهار إحدى المكونات المميزة للعادات والتقاليد الشعبية، بكونها ذات أهمية بالغة، وظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية، التي تعكس أوضاع المجتمع القروي، بما تمثله من سلوك متكرر متوارث جيلًا عن جيل (ذياب فوزية، 1980م، 105).

تمتاز منطقة حوض الصومام بدورها، بمجموعة من العادات والتقاليد التي تناقلتها وتوارثتها الأجيال عن بعضها البعض، بما ترمز إليه من منابع الأصالة والثقافة، وهي تختلف في مظهرها من منطقة إلى أخرى، ومن عرش إلى آخر، ومن قرية إلى أخرى، رغم وحدة البعد والجوهر، وهو راجع إلى الأشكال التنظيمية للقرية القبائلية. بين القرى التي تنتمي إلى فئة القبائل (البربر)، ومن تنتمي إلى فئة المرابطين ذوي الأصول الأمازيغية والذين قاموا بنشر القيم الإسلامية الداعية إلى الرحمة، التعاون، والتضامن، كما حاربوا الجهل بنشر العلم بواسطة المدارس القرآنية والكتاتيب والزوايا (فراد محمد أرزقي، د. س، 23-28) (Tillon, 1982, 92-94)، المنتشرة في أنحاء منطقة القبائل، وفي مقدمتها منطقة حوض الصومام؛ إلا أن المحرك الفعلي لهذه القرى هو الهيكل التنظيمي لها، والمعروف بمجلس القرية (ثاجماعث)، بما يسّنه من قوانين عرفية تنظم حياة السكان في حيّز القرية وخارجها، وفق ما يعرف بالقانون العرفي الأمازيغي. حيث سنسعى من خلال هذه الدراسة إلى معرفة البعد الحضاري والثقافي، والتفاعل والحركية البنوية للمجتمع المحلي للمنطقة، بإبراز أهم مكوناتها العرفية والتقليدية، وهو ما يجعلنا وفق هذا المنطلق نبني إشكالية قائمة على ما يلي: ماهي أهم النظم والعادات والتقاليد الشعبية المنتشرة بمنطقة حوض الصومام؟ وللإجابة على هذا الإشكال وجب علينا معرفة مجموعة من الخصائص الجغرافية لمنطقة حوض الصومام التي يتفاعل من خلالها الإنسان المحلي مع محيطه الجغرافي والاجتماعي، وهو ما يجعلنا نبني موضوعنا على مجموعة من الفرضيات القائمة على ما يلي:

- إن التنظيم الاجتماعي للقرية (ثاجماعث) هو المحرك الفعلي لجميع المظاهر الحياتية في القرية، وما ارتبط بها من ممارسات وعادات وتقاليد، تظهر من خلالها أصالة المجتمع المحلي.
 - تأثير الوسط الجغرافي على المظاهر العامة للعادات والتقاليد بمنطقة حوض الصومام.
 - العادات والتقاليد بمنطقة حوض الصومام تحاكي سيرورة المجتمع المحلي، وتطوره مع الحفاظ على أصالته.
 - وللإجابة على الإشكال المطروح تمّ تقسيم موضوع الدراسة إلى مجموعة عناصر أساسية قائمة على ما يلي:
 - معرفة الإطار الجغرافي المكتنف لقرى منطقة حوض الصومام.
 - دور مؤسسة ثاجماعث في تنظيم الحياة السياسية الاجتماعية والثقافية للقرية.
 - العادات والتقاليد المختلفة ومدلولاتها الثقافية والحضارية.
- يندرج مجال هذا الموضوع ضمن الدراسات الاجتماعية والأثرية بأبعادها الإثنوغرافية، وما تحمله من أسس وقيم تبرز قيمة المجتمعات القروية.

تعددت الدراسات الاجتماعية والسوسيولوجية حول المجتمعات القروية بالجزائر كدراسة Emile Carrette في كتابه La Kabylie proprement dite، الذي عرض فيه أهم المعطيات الثقافية والتاريخية وحتى الاجتماعية التي تميز منطقة القبائل، وكذا دراسة هانوتو ولوترنو حول منطقة القبائل وأعرافها في كتابه: La Kabylie et les coutumes Kabyles، بحيث تناول فيه المظاهر الاجتماعية (الأعراف والتقاليد والعادات بمنطقة القبائل)، أضف إلى ذلك الدراسات الحديثة كدراسة عبد الكريم بوعمامة في كتابه بنو يعلى لمحات من التراث اليعلاوي عادات وتقاليد، ودراسة لحسن بن شيخ آث ملويا في كتابين: الأول بعنوان: القانون العرفي الأمازيغي، والثاني بعنوان: التعريف بالأمازيغ وأصولهم؛ إلا أنّ منطقة حوض الصومام لم تنل حظها الأوفر من الدراسات الأكاديمية المعمّقة المبرزة لجناب عدّة من الحياة الثقافية القائمة على العادات والتقاليد والأعراف في هذا النطاق الجغرافي من الجزائر.

اعتمدنا في هذه الدراسة على منهج قائم على الدراسة الوصفية التفصيلية في بعض الأحيان مدعما بالمنهج التحليلي المقارن تأكيدا لبعض المعطيات والحقائق التي يتطلبها هذا النوع من الدراسات، والتي تبقى قائمة على ما يمارسه الفرد من عادات وتقاليد متوارثة أو ما انتقل إليه تواترا بالرواية.

1. الموقع الجغرافي لمنطقة حوض الصومام:

يعتبر الجانب الطبيعي منطلق أي دراسة سواء كان ذلك على مستوى مجال واسع أو ضيق، ويهدف إلى إعطاء الصورة الحقيقية لمنطقة حوض الصومام بمعرفة المظاهر والخصائص الطبيعية لها. تعدّ منطقة حوض الصومام من المناطق التابعة إقليميا لمنطقة القبائل، والتي تقع بالجهة الشرقية للجزائر العاصمة، تبعد عن هذه الأخيرة بحوالي 200 كلم، وتتربع على مساحة مقدرة بحوالي بـ 920 كلم²، وهي واقعة بالجهة الشمالية الشرقية لولاية بجاية (مصلحة التخطيط 01)، يحدها من الجهة الشمالية البحر الأبيض المتوسط، ومن الجهة الجنوبية منطقة البويرة، ومن الجهة الشرقية كل من منطقتي برج بوعريج وسطيف، أما من الجهة الغربية منطقة تيزي وزو (الخريطة رقم: 01).

تتميز منطقة الدراسة بشبكة هيدروغرافية متنوعة، فنجد أهمها واد الصومام أو ما يعرف محليا بـ "ACIF Assemmam" بمعنى النهر الحامض، الذي يبلغ طول سهله حوالي 80 كلم، وعرضه 4 كلم. يفصل ما بين جبال البيان والبابور شرقا وأكفادو وقورايا غربا (عزوق عبد الكريم، 2015، 17)، علما أن المجرى الرئيسي لواد الصومام هو نتيجة إلتقاء رافدين رئيسيين وهما واد الساحل الذي ينبع من الجهة الغربية له (منطقة البويرة)، وواد بوسلام (طوله حوالي 160 كلم) الذي ينبع من الجهة الشرقية له، وذلك من سفوح جبل مغريس (منطقة سطيف) (بولحبال سمية، 2006/2007، 05).

2. مجلس القرية (ثاجماعث) ودوره التنظيمي والثقافي:

مجلس القرية (ثاجماعث) هو مجلس منتخب يشترك فيه سكان القرية وأعيانها، مشكل في أصله من أعضاء دائمين هم:

- الأمن: هو شيخ القرية وكبير أعيانها.
- الطمّان: هو مندوب عن أحد العائلات الكبرى بالقرية (ثخروبث) يسعى إلى تسير شؤون العائلة ومعالجة مشاكلها.

- الوكيل: وهو وكيل المسجد مشرف على القيام بالمحاسبة بما يدخل من إيرادات للمسجد، وما تنفقه الجماعة أيضا...

- إمام القرية: وهو المشرف الروحي والديني لكل ما يتعلق بالتشريعات الدينية والعادات (الزواج...).

- الأعضاء المؤقتون: وهم سكان القرية، حضورهم إجباري ودورهم ثانوي في إصدار القرارات والعقوبات. يسعى هذا المجلس إلى تحقيق التوافق الحياتي والاجتماعي بين أفراد القرية الواحدة وفق هيكله التنظيمي، وما يسنه من قوانين عرفية وتنظيمية تسعى للحفاظ على الكتلة البنيوية للقرية (هانوتو ولوتورنو، 2013، 39-47 / Bahia Amellal, 2010, 161-166)، وفيما يلي نشير إلى بعض القوانين كقانون رقم 01 يعاقب بغرامة مالية كل من حضر متأخرا عن اجتماع القرية باستثناء المرضى (لحسن بن شيخ آث ملويا، 2006، 146)، والقانون رقم 02 تعقد اجتماعات دورية لأعضاء مؤسسة ثاجماعت بغض النظر عن عدد الحضور للتشاور حول قضايا القرية (لحسن بن شيخ آث ملويا، 2006، 148)، كما تشرف على مجموعة من العادات والنشاطات ببعدها المادي الثقافي والديني، كتسيير موسم الفلاحة بتقنين مواقيت الحرث، الزراعة، جني الزيتون، والحصاد _ هذا من باب المثال لا الحصر _ إضافة إلى الإشراف على تنظيم بعض التظاهرات الاجتماعية التي تبرز من خلالها روح التكافل الاجتماعي في القرية في المناسبات المختلفة (عاشوراء والأعياد...) وفق ما يعرف بـ لوزيعة أو ثيمشروط، والتوزيع، كمبدأ للتعاون في تحقيق المصالح المشتركة للقرية وغيرها، وكل من يتخلف عن المساهمة في تحقيق مصلحة من هذه المصالح المشتركة تخضعه ثاجماعت إلى عقوبات مالية ونفسية سعيا للحفاظ على هيبتها وروح التعاون والتكافل الاجتماعيين في وسط القرية (Eungéne Daumas, 2006, 135 153) وفيما يلي سوف نتطرق إلى مجموعة من التقاليد والعادات بعد التطرق إلى الإشارة إلى البعد المفاهيمي لها.

3. مفهوم العادات والتقاليد:

قبل التطرق إلى العادات والتقاليد المنتشرة بمنطقة حوض الصومام ارتأينا أن نحدد أولا مفهوم مصطلحي العادات والتقاليد على النحو التالي:

1.3. مفهوم العادات:

العادات جمع لكلمة العادة، وهي لغة من فعل تَعَوَّدَ يَتَعَوَّدُ تَعَوُّداً، ومعناها تلك الأشياء التي درج الناس على عملها أو القيام بها أو الاتصاف بها، وتكرر عملها حتى أصبحت شيئا مألوفا ومأنوسا (حويلي نبيل، 2011/2012، 09)، والعادة هي حالة تكرر على نهج واحد (إسعد فايزة، 2011/2012، 90)، أو هي سلوك على نمط واحد (عطا الله الزقوات، 2000، 5)، كما نجد تعريفات عدّة للعادات من طرف الباحثين كتعريف الباحث جون كزنوف بقوله: "أنّ العادة هي نمط من السلوك أو التصرف المعاد والمكرّر، ولا يجد المرء غربة في ممارسة العادات لأنها جزء لا يتجزأ من حياته الاجتماعية" (Jean, 1957, 43-44)، كما عرّفها الباحث جلن بقوله: "أنّ العادة هي كل سلوك متكرر يكتسب ويتعلم ويمارس ويتوارث اجتماعيا" (ذباب فوزية، 1980م، 105)، وعرفها أيضا برديو بقوله: "العادة هي مجموعة من الإستعدادات المستدامة والقابلة للنقل" (Bourdieu, 1980, 88).

مع العلم أنه ليس كل سلوك متكرر يدخل في العادات الإجتماعية، فهناك من العادات ما يمكن اعتباره خاصا بالفرد وفق ما يعرف بالعادات الفردية، وهذه الأخيرة هي أسلوب وظاهرة فردية شخصية؛ بينما تمثل العادات الاجتماعية أسلوبا اجتماعيا لا يتأسس إلا في غضون المجتمع ويتفاعل مع أفراد وجماعاته (حويلي نبيل، 2011/2012، 10-09)، وما يؤكد هذا الطرح ما أشارت إليه الباحثة فوزية دياب في قولها: "إنّ الإنسان صانع العادات، وطبيعته هي التي تسمح له القيام بعادات ومعتقدات، يُرسي بها قواعد ودعائم اجتماعية، بينما يعتبر علماء الاجتماع أن العادات الاجتماعية هي الدعائم الأولى التي يقوم عليها التراث الثقافي في كل بيئة اجتماعية، ويرى فيها الأصول الأولى التي استمدت منها النظم والقوانين مادتها، كما أنها القوى الموجهة لأعمال الأفراد وحياتهم" (ذياب فوزية، 1980م، 103-104).

ترتبط العادات بالزمان والمكان لأنها تمارس في زمن معين مثل المناسبات ومكان معين، ولأنها تختلف من مكان لآخر باختلاف ثقافة المجتمع هذا من جانب ومن جانب آخر، تظهر العادة نتيجة تفاعل الأفراد مع بعضهم البعض، علما أنها تنشأ تلقائيا وتمارس بطريقة لا شعورية (إسعد فايزة، 2011/2012، 108).

1.3. مفهوم التقاليد:

التقاليد جمع لكلمة تقليد، وهي في اللغة الإنجليزية مشتقة من الأصل اللاتيني لكلمة Trade، وتعني النقل والتجارة، وفي اللغة الإنجليزية Trade تعني نقل الشيء من مكان إلى آخر، وتقليد في اللغة العربية مصدر من الفعل قلّد ولغة هو ما انتقل إلى الإنسان من أبائه ومعلميه من العقائد والعادات والعلوم... (إسعد فايزة، 2011/2012، 121)؛ كما نجد تعريفا آخر للتقليد الذي يعني تقلّد جيل أساليب الجيل الذي سبقه، ويسير عليه وفق الممارسات والسلوكيات والتصرفات، أو في العقائد والأعمال الأخرى التي يريثها الخلف عن السلف (Jean, 1957, 44-49)؛ التقاليد هي النظام التطبيقي المتفق عليه من الناس والذي يؤدي إلى الاتساق بين أفعال الناس وبين بعضهم البعض (رفيق حبيب، 2003، 13).

كما نجد تعريفا دقيقا للتقاليد بأنها: "عادات متوارثة يقلّد فيها الناس من سبقهم، وهي كل ما اتصل بالناس من أمور العقائد أو غيرها نقلا عن السلف" (جماعة كبار اللغويين العرب، 1989، 1003).

4. العادات والتقاليد بمنطقة حوض الصومام:

منطقة حوض الصومام على غرار مناطق زواوة الأخرى تمتاز بمجموعة من العادات والتقاليد التي تناقلها وتوارثها أفرادها جيلا عن جيل، بما تمثله من إرث شعبي ومعرفي، ورمزا للأصالة والثقافة المحلية، فأى خروج عنها أو ترك لها في نظر سكانها يعتبر إهمالا لمقومات هذه الثقافة العريقة، فمن بين أهم العادات والتقاليد المنتشرة بمنطقة حوض الصومام (بجاية) ما يلي:

1-4- الاحتفال بالأعياد الدينية:

تستقبل قرى منطقة حوض الصومام الأعياد الدينية بالفرحة، البهجة والسرور، كعاشوراء، والعيدين (الأضحى والفطر)، والمولود النبوي الشريف (فاتح خلفات، 2011، 240). يميزها تحضير وإعداد أطباق وأطباق تقليدية كالكسكس، ثكورباين tecourbabines. هذا من جهة، ومن جهة أخرى ففي هذه الأعياد الدينية يتم زيارة لأضرحة الأولياء والصالحين، الموجودة غالبا بقرب المسجد أو المقبرة، التي تكون مزينة

بأقمشة ملونة ذات أشكال متعددة ومختلفة. ويصاحب هذه الزيارات إنارة الشموع في كل أركان الضريح، والتصدق بالعشور، والأموال قصد التبرك والخير، بالإضافة إلى الدعاء للاستجابة ببركة الولي، كما يتم زيارتها في الغالب يومي الاثنين والخميس من أيام الأسبوع، لما لهؤلاء الأولياء من هالة التقديس والقيمة من طرف سكان المنطقة. إلى درجة الحلف بهم، كأن يقال مثلاً: أحق سيدي سنوسي، أحق سيدي الصادق، أحق سيدي أعلي أشتوق.....الخ.

وبالإضافة إلى ذلك إقامة احتفالات شعبية في أجواء أخوية، ويكون ذلك أيام العيدين، ومناسبة عاشوراء، التي تعرف محلياً بـ: لوزيعة.

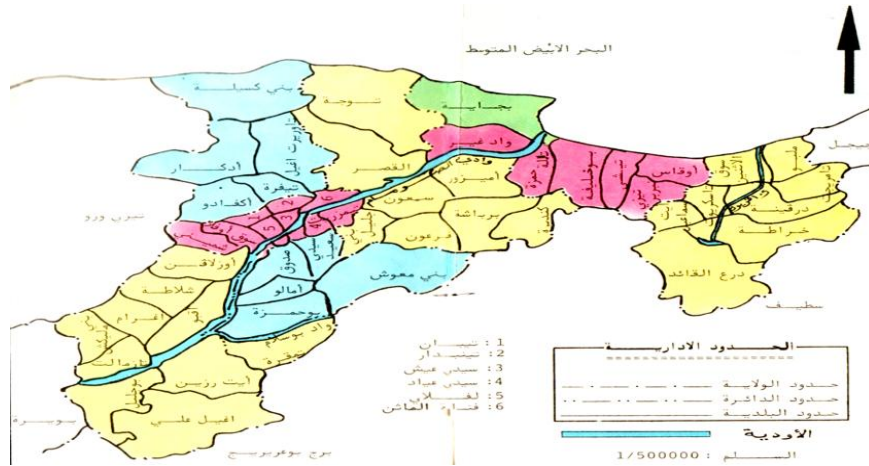
4-2- تيمشروط أو لوزيعة:

تعدّ لوزيعة أو تيمشروط Timechret العادة الموروثة من الأجداد تحمل معاني التأخر، وكذا المساواة بين أفراد القرية كلهم (الفقير = الغني)، ففي يوم إقامة لوزيعة يتساوى كل ساكني القرية فلا فرق بين غني وفقير، صغير وكبير، مقيم بالقرية ومغترب عنها، فهو يوم تعم فيه الفرحة كل البيوت، وهو ما يزيد في غرس مبدأ التأخر والتعاون بين أفرادها، هذا مع ما يمكن إيجاده من اختلاف في تسمياتها من منطقة إلى أخرى، ففي الجهة اليسرى لحوض الصومام تعرف بتيمشروط على غرار مناطق: تازمالت، بني مليكش، أقبو وغيرها، والجهة اليمنى منها تعرف بلوزيعة على غرار كما هو حال مناطق: بني معوش، صدوق، بوحزمة وغيرها. (الخريطة رقم: 01).

يتم الاحتفال بهذه العادة قديماً في أيام الأعياد الدينية (العيدين، ومناسبة عاشوراء) من كل سنة، حيث تذبح فيها الجوزور (الثيران) المقدّمة من طرف أغنياء القرية كهدايا أو هبات، إذ يجتمع الناس في ساحة القرية (تاجماعت التي تمثل جماعة من كبار أهالي القرية)، لتوزيع اللحم الذي يوضع على شكل كتل متساوية يصطلح عليها محلياً بتاثوننت Tatounte (بحيث 01 ثائوننت = اللحم + الكبدة + الأحشاء ...) على الفقراء والمحتاجين بالعدل من طرف لجنة القرية المعروفة بتاجمعت. (رواية شفوية 01).

أما حالياً فمظهر الاحتفال بهذه العادة فقد تغيرت بعض أوجه مظاهره، حيث تكلف لجنة القرية بشراء الثيران، لذبحها وتقسيمها إلى كتل متساوية (ثائوننت) حسب عدد عائلات القرية، أما تكاليف شراء الثيران يتحملها أهالي القرية جميعاً (الغني والفقير)، على عكس ما كانت عليه في السابق. بعدما يتم بيع رؤوس الثيران (أقروين Ikerouyenes) في مزاد علني (أي الذي يعطي أعلى ثمن يباع له).

الاحتفال لم يعد يتكرر في المناسبات الدينية كل سنة، بأغلب قرى المنطقة، إذ تقام أحياناً في عيد الفطر، وقلّ ما تحدث في عاشوراء (ثاعاشورث)، وسبب ذلك راجع إلى عدم اكتراث سكان هذا العهد لمثل هذه العادات الشعبية، الأمر الذي سيؤدي إلى زوالها بمرحلية، وهو ما يجعلنا نطرح اشكال غياب عاداتنا وتقاليدنا في الوقت الحالي؟



الخريطة رقم(01): الخريطة الإدارية لولاية بجاية.

3-4- التوزيع (توزيعي Tiwizi):

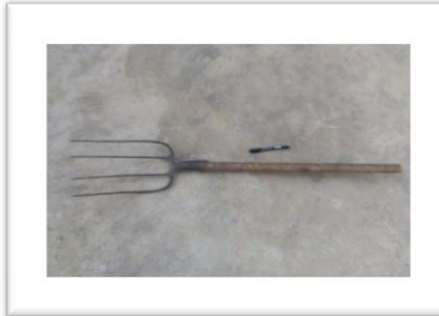
تعد تويزي (التوزيع) العادة المنتشرة بالقرى القبائلية والجزائر عموماً، التي يصطلح عليها أيضاً بـ "أمرطل Amertel" في منطقة حوض الصومام، وهذا فهي تشكل إحدى القيم القاعدية للعمل التضامني في المجتمع القبائلي، فتتبادل فيه العائلات القروية يد العون في ما بينها لإنجاز أشغالها. هذا الوجه التضامني (التوزيع) عرّفه الباحث الفرنسي دالي في قاموسه الفرنسي- القبائلي أنه: "...تعاون بين الأفراد لإنجاز عمل مستعصي بطريقة جماعية يصعب إنجازه فردياً..." (Dallet, 1982, 883)؛ فالأعمال الشاقة تستدعي تكاتف الجهود والعمل الجماعي من أجل إنجازها في وقت قياسي (Alain Mahé, 2000, 24 - 26)، حيث يمكن مؤسسة ثاجماعت أن تفرض هذا المظهر التضامني والتعاضدي وجوباً في حالة نقل الأسس الخشبية الضخمة، شق الطرق من وإلى القرية، تنظيف منابع المياه والسواقي، ويمكنه أن يتعدى إلى فرض عقوبات وفق القانون العرفي في حالة التخاذل والهروب من هذا النشاط، حسب ما يراه مجلس القرية (الحسن بن شيخ آث ملويا، 2007، 165)، هذا بإضافة إلى ما ارتبط بنشاطات الموسم الفلاحي حسب الوفرة والقلة، كعادة الاستسقاء (بوغنجة- أنزار)، التي يسعى من خلالها مجتمع القرية ككل لطلب الغيث من الله وفق طقوس معينة؛ حيث يتم حمل ملعقة خشبية كبيرة (أغونجا)، يتم إلباسه على شكل عروس مزدانة بخرق من القماش المختلفة الألوان، لتظهر بمظهر المرأة القبائلية، وتحمل هذه الملعقة إما من طرف كبير القرية مثلما هو الشأن بمنطقة بني معوش بحوض الصومام، أو حمله من طرف إحدى الصبايا رفقة أطفال القرية مرددين عبارات أمازيغية: "أنزار أنزار أرب أحيو أزار" ومعناها: "يا رب أحي عروق النبات والأشجار"، وبالدارج تردد كالاتي: "بوغنجة طالب أسما يا ربي قوي الماء" (عبد الكريم بوعمامة، 2006، 67-68)، ومن خلال هذا المظهر التكافلي البسيط ببعده الديني والروحي، والمقصد النفعي المادي، نجده يتصل بمجموعة من النشاطات الناتجة عن المواسم الفلاحية الجيدة كالحصاد، الدرس وجني الزيتون، تظهر من خلالها روح التكافل الإجتماعي والعمل التضامني، ونفصلها كالاتي:

4-3-1- الحصاد (تَامَقْرا Tamegra):

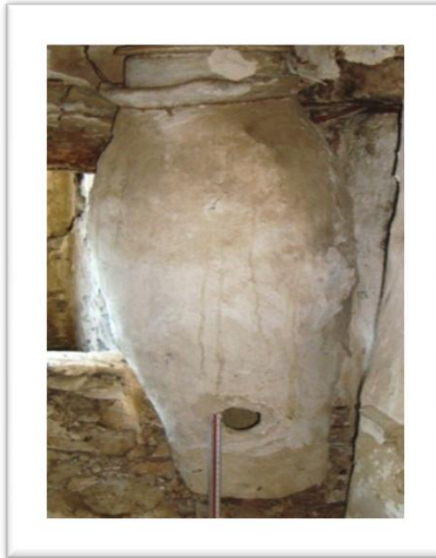
يعتمد أهالي القرية إلى حصاد القمح جماعيا في عز فصل الصيف، فيتبادلون ويتعاونون فيما بينهم على حصاد أراضيهم، ليتم جمعها ونقلها بواسطة الحمير والبغال إلى موقع دائري يعرف محليا بـ "أنار Anare"، وهذا من أجل الدرس (الرواية الشفوية 01).

4-3-2- الدرس (أسروث Asarweth):

بعد الانتهاء من عملية الحصاد وجمع سنابل القمح على شكل كتل مربوطة بالحبال، والتي تنقل بواسطة البغال والحمير من أجل الدرس إلى ساحة دائرية الشكل تعرف محليا بـ "أنار Anare"، والتي تحضر قبل بداية العملية بواسطة تمليس أرضيتها بخلط التربة الصفراء التي يصطالح عليها أمليل مع فضلات الثيران المعروفة بـ "ثازقي"، وتترك لمدة يوم كامل لتجف الأرضية (تدعى هذه العملية بأطري Atteri): كما نجد عمود حديدي أو خشبي في وسط هذه الساحة (أنار) يدعى محليا بـ "إقيق أو المزنونة"، الذي يكون دوره ربط البغال أو الثيران إليه مع بعضها البعض، وهذه الأخيرة تدور لدرس السنابل بواسطة أرجلها، وعند الانتهاء يطلقون سراحهم، ويجمعون القمح المدروس إلى جهة واحدة، فتستعمل المذرة (ثازارث) (الصورة رقم: 01) لفصل حبات القمح عن التبن، وهذا عند هبوب الرياح المعروفة بـ "العولة" محليا، بعدها تملأ في أكياس وتنقل إلى المساكن لغربلتها، والتي تعتبر المرحلة الأخيرة لتخزينها في المخازن الخاصة لذلك "إيكوفان" (الرواية الشفوية 02) (الصورة رقم: 02).



الصورة رقم 01: وسيلة تستعمل للجمع (ثازارث).



الصورة رقم 02: وسيلة التخزين (إيكوفان).

4-3-3- جني الزيتون:

تتم هذه العملية بداية من شهر نوفمبر إلى غاية نهاية جانفي، حيث تستعمل في هذه العملية مجموعة من الأدوات والوسائل كالعصي التي تنفض بها حبات الزيتون أو ما يعرف بـ أنزال، هذا مع اختلاف وتنوع في الوسائل والأدوات المستعملة حسب طبيعة الأرض (المنبسطة أو المنحدرة) (عبد الكريم بوعمامة، 2006، 122-123)، ومن أهم أنواع الزيتون المنتشرة بالمنطقة نجد: أشمّلال، أبركان، أجّاز، أرقاق، أكراراز، وهي تختلف في لونها وحجمها، وذوقها ونسبة احتوائها على الزيت، إنّ هذه العملية بدورها تخضع إلى مبدأ التوزيع، إذ يقوم أهالي القرية بالتبادل والتناوب فيما بينهم بما يعرف عندهم بمصطلح "أبدّل" (Abeddel) (الرواية الشفوية 01/ أحمد ساحي، 2015، 175)، وهو أن تقوم جماعة بجمع الزيتون عند أحد أهالي القرية وعند الانتهاء يقوم هذا الأخير بمساعدة من مدّ له يد العون في عمله أيضا، فيكون العمل بهذا الشكل في النهاية متناوبة ثنائية أو جماعية.

4-4- الزواج:

يتم الزواج التقليدي بقرى المنطقة بناء على درجة القرابة العائلية، بمعنى الانتماء الواحد للعائلة أو الحي أو القرية، ونادرا ما يتم الزواج خارجها. بالإضافة إلى ذلك يكون الزواج المبكر لكلا الجنسين فالرجل ما بين 16 سنة إلى 20 سنة، أما المرأة فمن 10 سنوات إلى 16 سنة (عبد الكريم بوعمامة، 2006، 38-44). وفي هذا الصدد لدينا رواية شفوية لأحد أعيان قرية آث خيار بمنطقة حوض الصومام لكيفية الزواج التقليدي وهي كالتالي: "الرجال هم الذين يتحكمون في زواج أولادهم، إذ يقومون بالبحث عن المرأة عن طريق الأولياء، فيسأل وليّ الولد أب البنت: هل لديك بنت للزواج؟ إذا أجابه بنعم فيقول له أعطيتها لولدك، أما إذا قال له ليس عندي، فيسأله مجددا: هل تعرف أحدهم لديه بنت للزواج؟ ويتم ذلك في الأسواق الأسبوعية أو الساحة العامة للقرية، ويكون الزواج من نفس العائلة أو من الأقارب (الرواية الشفوية: 02). وبعد الموافقة على الزواج بين العائلتين، صرحت لنا إحدى نساء نفس القرية عن طقوس العرس، إذ قالت: يقوم أهل العريس ببيع كبريات السن إلى أهل العروس ليضعن عليها الحلي فضية، وبعد أسبوع يتم إعلان الزواج، وتحضر العروسة التي تغطي كليا بالحايك على الحصان المزيّن سرجه بزربية التي يصطلح عليها "تخلالت Takhelalte"، مع أخذ ملابسها بحصان آخر داخل صناديق تعرف بـ "أفينيك Afenike" (الصورة رقم: 03) داخل قُفْ قُفْ متّصلة تعرف بـ "شواري Chwari"، وعند وصولها إلى دار عريسها يتم إدخالها بالحصان إلى فناء المسكن، وتستقبلها جدّة العريس أو أمه بعد أن تكشف عن وجهها، بغربال يحتوي على بعض البذور (القول، الحمص، القمح.... الخ) وكأس من الحليب. أضف إلى ذلك ملعقة من العسل، فتقوم العروسة برمي محتوى الغربال على الحضور، وبعدها تدخل إلى البيت وتجلس مقابلة للقبلة، وللجدار المخصص لنسج الزرابي (يصطلح عليه محليا تَارْكُنْتُ أَرْطَا) (الصورة رقم: 04)، بحيث تقوم بتسمير المسمار عليه قبل جلوسها" (الرواية الشفوية 03).

من خلال هاتين الروايتين الشفويتين يتضح لنا أنّ الرجال هم المتحكمون في زواج أولادهم على عكس النساء اللاتي يشرفن على طقوس تجهيز العروس، أضف إلى ذلك ما يرتبط من العادات والتقاليد التي

تمارسها العروس في بيت عريسها، من خلال رميها محتوى الغربال على الحضور، وتسميها للمسمار على الجدار المخصص للنسيج، فالأول يرمز إلى فآل خير لمن تتزوج بعدها والثاني يرمز لبقائها في بيتها حتى مماتها (أي عدم حصول الطلاق).



الصورة رقم 03: الصندوق (أفنيق).



الصورة رقم 04: الركن الخاص بالنسيج بالمسكن/ منطقة القبائل.

4-5- إستقبال فصل الربيع:

يحتفل بقدوم فصل الربيع شعوب كثيرة كشعوب حوض البحر الأبيض المتوسط وكذا شعوب الشرق الأوسط (ماجد عبد الله الشمس، 2003، 43)؛ إذ تعدّ عادة استقبال فصل الربيع المعروفة محليا بـ "أمزرو" ثفسوث" أو "أمزرو نربيع" من العادات المتداولة في منطقة الصومام، فيتم استقباله من طرف شباب القرية بتجولهم في أزقة قريتهم والقرى المجاورة لجمع المواد الغذائية (السميد، البطاطا، البيض....الخ)، وكذا الأموال، ويعرفون محليا بمصطلح إيبوغيفقن، ويكون ذلك في ليلة حلول فصل الربيع، ويرددون الأغاني



الصورة رقم(05): تنظيف المقبرة من طرف سكان القرية.(لم الشمل).

7-4- الفضاءات والأماكن المقدسة:

لا نكاد نجد قرية من القرى الريفية القبائلية خالية من الفضاءات المقدسة، ونقصد بذلك أماكن التبرك لطرد النحس والشر، ومن بينها الأشجار التي تربط فيها الخيوط بأغصانها، أو بغرس مسامير بجذورها، أو إشعال الشموع عندها، مع العلم أن ظاهرة تقديس الأشجار رافقت الإنسان منذ بداية تأمله وتفكيره في كل ما يدور حوله، وهي ظاهرة ليست غريبة عن الإنسان، إذ نجده يقُدّس الأشجار أَمْلاً في الشفاء والتبرك بها وتذبح الخرفان والمعز إلى جنبها (حسن الباشا ومحمد توفيق السهيل، ص.ص 327-328)، وكمثال عن ذلك نجد أن شجرة الزيتون ترمز في منطقة القبائل عموماً ومنطقة الدراسة خصوصاً إلى القوة والأصالة وعن استمرار حياة الأسلاف في حياة الخلف من أبناء وأحفاد (Akkache M.D , 2008, P89) إضافة إلى عيون المياه المرتبطة بالأساطير والحكايات الشفوية المختلفة التي تمارس فيها طقوس معينة كالشرب من مائها، الاستحمام أو الغسل....، والغرض من ذلك طلب الشفاء من بعض الأمراض، وطلب المساعدة (طلب الإنجاب، والزواج....الخ).

بالإضافة إلى العادات والتقاليد المنتشرة بالمنطقة، نجد أيضاً معتقدات راسخة في أذهان السكان كالاعتقاد بالسحر أو ما يعرف بـ "إِيْحَشْكَوْلُنْ"، ونعني بهذه الأخيرة عبارة عن عزائم ورقية وعقد أعمال تؤثر في القلوب والأبدان، فيمرض ويفرق بين المرء وزوجه وهو محرّم لأنه كفر بالله، مناف للإيمان والتوحد (إبراهيم بن صالح، 2000، 63) كما يعتبر وسيلة من وسائل إفشاء السوء والإصابة بالأمراض، ولكي يبطل السحر هناك عمل سحري آخر مضاد له (عبد الحميد بورايو، 2007، 24)، فالاعتقاد بالسحر ظاهرة لقيت رواجاً كبيراً في أوساط المناطق القبائلية، ويستخدم السحر للإيقاع بالغريم، وهذا بالاعتماد على المشعوذين والمشعوذات (بن سالم حورية، 2010، 20). هذا من جهة، ومن جهة أخرى الاعتقاد بالجن التي تعتبر من المعتقدات الشائعة في منطقة القبائل، فالجن عبارة عن أرواح وكائنات غير مرئية خلقت لعبادة الله، لقوله تعالى: "وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" (سورة الذاريات، الآية رقم 60)، حيث يوجد الجن في أماكن

مهجورة كالبنيات القديمة والأماكن المظلمة وغيرها، وللمجن مواصفات وعلامات مميزة نذكر منها: طول الأيدي، ويظهر على شكل حيوان (مليكه بلمودن، 2002/2001، 28)، ومن أمثلة الاعتقاد بالجن نذكر عفريت قطاف العرائس أي سارق العرائس، وهو عبارة عن عفريت يطير في السماء، ويحط على الأرض ويسكن في الجبال ويقوم بسرقة العرائس، وذلك يوم زفافهن فيحلق بهن في الأعالي ويصطحبهن إلى موضع سكنه، ويعرض عليهن الزواج فإن هن أبين، يجلدهن 99 جلدة ثم يطلق سراحهن (حويلي نبيل، 2012/2011، 21)، (Frobinus (L)، 1995، 89)، بالإضافة إلى الاعتقاد بالعين الحسود السائدة منذ القدم، إذ يحكم على أشخاص بأن أعينهم شريرة تجلب الأذى لما تبصر، فالعين الحاسدة هي طريقة من طرق الإيذاء، وإيقاع السوء بالأمراض (بن سالم حورية، 2010، 22).

خاتمة

ما يمكن قوله ختاماً فيما تعلق بالهيكل التنظيمي الإجتماعي للقرية، ووفق قوانينه الضبطية والردعية سعى مجلس القرية إلى خلق نوع من الانسجام في التركيبة الإدارية والتنظيمية له، بتسييره وحفاظه وتمسكه بمجموعة من العادات والتقاليد التي أشرفت ثاجماعث (مجلس القرية) على إحيائها وتأطيرها حفاظاً على الموروث الثقافي المادي والمعنوي لمجتمع القرية بحوض الصومام، التي تكفل الحفاظ على العدل والمساواة في العديد من المناسبات بين الغني والفقير فيها، بما يتوافق ومتطلبات الحياة الهنيئة التي أساسها البساطة والاحترام المتبادل وروح الجماعة، ومن جهة أخرى نرى بأن الاحتفال بتلك الأعياد الدينية والموسمية يجعل الإنسان القروي مرتبطاً بأرضه وعقيدته، إضافة إلى روح التكافل الإجتماعي بين أفراد المجتمع القروي الواحد وفق ما عرف من عادات كـ لتوزيع والتوزيع، وهي تجعل من لحة القرية قاعدة أساسية مبدؤها الكل للفرد والفرد للجميع، وهذا ما يظهر بصورة واضحة في مظاهر التعاون والتبادل في مواسم جني المحصول بمختلف أشكاله وأنواعه. إضافة إلى ما نراه أيضاً مجسداً في مظاهر التعاون للحفاظ أو تجديد المرافق المشتركة في القرية (الينابيع المائية والطرق...)، وهو ما يبين تطابق المظهر والجوهر في سعي مجلس القرية للحفاظ على بنياتها وكتلتها، حتى أنه في بعض الأحيان تفرض غرامات مالية على من يريد مغادرة القرية إلى قرية أخرى وفق مبدأ اللحمة والتماسك والقوة، التي تمتلكها القرية بعدد أفرادها وقوتهم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإننا استطعنا من خلال ما استعرضناه من بعض العادات المرتبطة بالزواج فهو بدوره أيضاً خاضع لأسس وقواعد ثابتة تندرج ضمن خانة العادة والعرف، رغم بعض الاختلافات الشكلية في مظاهر هذه العملية (الزواج) التي تحقق في أصلها كعنصر حيوي زيادة في عدد مساكن القرية ونقطة محورية أيضاً في تجديد نفسها بالمواليد الجدد الذين سيصبحون شبناً ورجالا وأعيانا تستند القرية عليهم في السلم والحرب.

إن بعض المعتقدات المتعلقة بالجوانب الطقوسية والمستندة إلى كرامات الأولياء وعنايتهم تبقى في إطار نوع من القدسية لهؤلاء الأفراد الذين يرى فيهم المجتمع المحلي واسطة بين الحق والخلق، رغم امتلاكهم لكرامات ظاهرة في حياتهم، جعلت العامة من الناس، وعلى رأسهم النساء يؤمنن بقدراتهم الخيالية حتى بعد الموت، إلى درجة جعلت الإنسان المحلي يتمادى في نسبة تقديسه لهؤلاء الأولياء إلى حد جعلهم يتبركون بالأماكن التي جلسوا فيها أو مروا عليها مثل الكهوف والأشجار وحتى الينابيع المائية، وهو ما يدل في أصله على

سداجة العقل البشري في بعض الأحيان، إلى درجة أنه يؤمن بكرامات الأولياء وقدراتهم أحياء وأموت، وهو ما يدل في حقيقة الأمر على نوع من القصور، وعدم الاطلاع الجيد على العقيدة الإسلامية، وما ساهم في حقيقة الأمر من انتشار هذا المظهر بهذه الصورة، هو انتشار الجهل في ظل الوجود العثماني بالجزائر في الفضاءات القروية بتشجيعها لبعض مظاهر التصوف المرتبط بالجانب الخرافي، إضافة إلى ما قام به الاستعمار الفرنسي بكل الوسائل من محاولة لطمس الهوية المحلية، خاصة بعد ثورة 1871م التي قادها شيخ الطريقة الرحمانية (الشيخ الحداد) روحيا والمقراني عسكريا، وما نتج عنه من تهجير لأعلام المنطقة وشيوخها ممن كانوا ضد الاستعمار الفرنسي، وهو ما ساهم في حقيقة الأمر كما أسلفنا في تفشي بعض المظاهر والطقوس البعيدة عن حقيقة المجتمع القروي بالمنطقة، الذي اشتهر بتمويل حاضرة بجاية الناصرية في العهدين الحمادي والحفصي بأقطاب من العلماء في شتى الفنون والعلوم العقلية والنقلية؛ إلا أنه لا يمكن اغفال هذه الحقيقة أن العادات والتقاليد السابقة الذكر تمثل جزءا لا يتجزأ من الحياة الاجتماعية بقرى منطقة حوض الصومام، فهي تتكرر في معظمها. بالإضافة إلى المعتقدات الشعبية السائدة، التي تعدّ حوصلة للموروث الثقافي الذي كان ومازال غالبه يمارس في هذا النطاق الجغرافي، فكيف لا وهو يعد جزءا لا يتجزأ من تراث وأصالة هذه المنطقة المنتشرة بالريف البجائي، الهادفة إلى ديمومة إرث الأجداد والتمسك به، وهي في أصلها (العادات والتقاليد) مبنية على غرس روح التعاون والتكافل الاجتماعي لتحقيق التفاهم والأخوة بين أفراد القرية.

قائمة المصادر والمراجع:**أولا - المصادر:****1- القرآن الكريم.****ثانيا - المراجع باللغة العربية:**

- 01- إبراهيم بن صالح، التوحيد بين السائل والمجيب، سلسلة مطبوعات مكتبة اللغة العربية، ط1، الجزائر، 2000.
- 02- بن سالم (حورية)، الحكاية الشعبية في منطقة بجاية (دراسة ونصوص)، دار هومة، الجزائر، 2010.
- 03- الزاقيات (عطا الله)، العادات والتقاليد في جيل العرب، ط1، منشورات دار علاء الدين، 2000.
- 04- حبيب (رفيق)، في فقه الحضارة العربية الإسلامية إحياء التقاليد العربية، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، 2003.
- 05- ذياب (فوزية)، القيم والعادات الاجتماعية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1980.
- 06- الباشا (حسن) والسهييل (محمد توفيق)، المعتقدات الشعبية في التراث العربي، دار الجليل، القاهرة، مصر، د.ط، د.س.
- 07- الشمس (ماجد عبد الله)، الحضارة والميثولوجيا في العراق القديم، دار علاء الدين، ط1، دمشق، 2003.
- 08- بورايو (عبد الحميد)، القصص الشعبي في منطقة بسكرة (دراسة ميدانية)، وزارة الثقافة، الجزائر، 2007.
- 09- بوعمامة (عبد الكريم)، بنو يعلى لمحات من التراث اليعلاوي عادات وتقاليد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2006.
- 10- سحي (أحمد)، زواوة من القرن 16 إلى 18م، دار الأمل، تيزي وزو، 2015.
- 11- خلفات (فاتح)، قبيلة زواوة بالمغرب الأوسط ما بين القرنين 12م/15م دراسة في دورها السياسي والحضاري، دار الأمل، تيزي وزو، 2011.
- 12- بن شيخ آث ملويا (لحسن)، القانون العرفي الأمازيغي، دار الخلدونية، القبة، الجزائر، 2006.
- 13- بن شيخ آث ملويا (لحسن)، التعريف بالأمازيغ وأصولهم، دار الخلدونية، القبة، الجزائر، 2007.
- 14- هانوتو ولوترنو، منطقة القبائل الكبرى العادات القبلية التنظيم السياسي والإداري، ترجمة: مزيان الحاج أحمد قاسم، دار كرجا، تيزي وزو، الجزائر، 2013.
- 15- فراد (محمد أرزقي)، إطلالة على منطقة القبائل، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، د.س.
- 16- عزوق (عبد الكريم)، المعالم الأثرية الإسلامية ببجاية، ط1، إصدارات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، الجزائر، 2015م.

ثالثا - المراجع باللغة الأجنبية:

- 01- Akkache(M.D), Art Artisanat traditionnel et Folklore, Mehdi, Alger, 2008.
- 02- Amellal(B), Dans la giron d'une montagne chronique, Edition Achab, Algérie, 2010.
- 03- Alain(M), Histoire de la grande Kabylie, Edition Bouchene, 2000.
- 04-Bourdieu(P), Les Sens pratique le sens commun, Maison des Sciences de l'homme, éditions de Minuit, Paris, 1980.
- 05- Frobinus(L), Contes Kabyles, tr : Mokran Fetta, Tome 01, Edisud, Aix en provenance, France, 1995.
- 06- Daumas(E), Mœurs et coutumes de l'Algérie, Edition ANEP, 2006.
- 07- Tillon(G), Le Harem et Les Cousins, Ed Seuil, Paris, 1982.
- 08- Jean(C), Les Dieux danset à cibola, Gallimard, Paris, 1957, PP,43-44.

رابعا - المذكرات والأطروحات:

- 01- بولجبال (سمية)، حوض واد بوسلام: موارد المياه واستعمالاتها، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في تهيئة الأوساط الفيزيائية، كلية علوم الأرض الجغرافية والتهيئة العمرانية، قسم التهيئة العمرانية، جامعة قسنطينة، 2006/2007م.
- 02 - حويلي(نبيل)، أشعار الزواج بمنطقة عزازقة(مقاربة نياسية)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في تخصص لغة وأدب عربي، كلية الآداب واللغات، قسم الأدب العربي، جامعة مولود معمري تيزي وزو، السنة الجامعية 2011/2012.
- 03- إسعد (فايزة)، العادات الاجتماعية والتقاليد في الوسط الحضري بين التقليد والحداثة(مقاربة سوسيو-أنثربولوجية لعادات الزواج والختان مدينتي وهران وندرومة نموذجا)، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في علم الاجتماع، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران، 2011/2012.

04- بلمودن(مليكة)، القصة الشعبية القبائلية في مدينة برج منايل(دراسة ميدانية)، رسالة لنيل شهادة الماجستير، قسم اللغة والثقافة الأمازيغية، جامعة تيزي وزو، 2002/2001.

خامسا - القواميس والمعاجم:

01- من تأليف وإعداد جماعة من كبار اللغويين العرب، لاروس المعجم العربي الأساسي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم/أليسكو، باريس، 1989م.

02 -Dallet (J-M), Dictionnaire Kabyle-Français, Ed Sellaf, Alger, 1982.

سادسا - الروايات الشفوية:

01- الرواية الشفوية 01: السيد عاشوري علي البالغ من العمر 78 سنة.

02- الرواية الشفوية 02: السيد كبان إبراهيم البالغ من العمر 80 سنة.

03- الرواية الشفوية 03: السيدة بوجرة حليلة البالغة من العمر 85 سنة.

04- مصلحة التخطيط 01: مصلحة التخطيط والتهيئة العمرانية لولاية بجاية.